بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 09 نوفمبر 2017

الفكر السلفي السُّنّي وأزمة الثقافة الروائيّة
رؤية نقديّة لخدمات السُّنّة للقرآن

يوسف هريمة
باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2017
All rights reserved © 2017

الفكر السلفي السُّنّي وأزمة الثقافة الروائيّة

رؤية نقديّة لخدمات السُّنّة للقرآن[1]

1- نشر ضمن مشروع "تجديد الفكر الإسلامي مقاربة نقدية (1) محاولات تجديد الفكر الإسلامي مقاربة نقدية"، تقديم بسام الجمل، مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، أكتوبر 2014

ملخص البحث:

مثّلت السنّة النبوية إطاراً ثانياً يحتوي برواياته كلّ المنظومة الدّينية الإسلامية، فتجاوزت وظيفتها قضية البيان والتفسير، لتصير قاضية على القرآن نفسه، حيث لا يمكن أنْ يُفهم إلا داخل سياجاتها.

لم يكتف المنظِّرون للوحي الثاني بصياغة الدين وفق السّقف المعرفي للسّلف؛ بل كرّسوا، عبر ما سمّي علاقة السنّة بالقرآن الكريم، أمراً خطيراً، حين أصّلوا لفكرة استقلالية السنّة النّبوية بالتّشريع، فسمحوا، من خلال تنظيراتهم، لكلّ صاحب أدلوجة دينية، أو موقف سياسي، بأنْ يُخضع النصّ القرآني لتوجّهاته السّياسية والفكرية، وبدل أنْ نقرأ القرآن الكريم، من خلال بنيته الداخلية، بمنهجٍ يجنّبنا الاعتباطية والتّجزيء، صار كلّ فريق يناضل من خلال منظومته الروائية، ويثبت أحقّيته على الطّرف الآخر في الفهم والتأويل والموقف الديني والسّياسي.

إنّ ما يهدف إليه البحث -كما سنرى من خلال كلّ مَحاوره- إثبات محورية الرّواية في الثقافة الدينية، وأنّ النص القرآني ليس نصّاً مؤسِّساً في ثقافتنا، كما يريد أنْ يوهمنا بعضهم، وهذا استدعى منّا أنْ نختار طريقاً بحثياً نُخضع فيه التنظير الفكري لمجال التطبيق، فنثير التّساؤل من جديد: هل، حقّاً، نحن أمام وحيَيْن؟ ولماذا لم يذكر القرآن الكريم مسألة السنة النبوية، أو الأحاديث؟ كيف استطاع المنظرون لمسألة الوحي الالتفاف على النصّ القرآني لإثبات فكرة مسبقة؟ هل ما سُمّي خدمات السنّة النبوية للقرآن الكريم أمر قد جاوز منطق النقد؟ وما مدى مصداقية هذا العلم من خلال ما يثيره من قواعد وضوابط؟

كلّ هذه الأسئلة يتفرّع منها البحث؛ ليحاول أنْ يضع الباحث أمام فرضيات يمكن أنْ يتتبّعها، ويتأكّد من صدقها، أو بطلانها، على حدٍّ سواء. فهدف البحث ليس إصدار معارف يقينية، بقدْر ما هو محاولة لتحرير الفكر من النّسق المغلق؛ الذي تفرضه بعض العلوم، لاسيما علوم الحديث. وللوصول إلى غايتنا، فإنّنا سلكنا منهجاً تحليلياً وتركيبياً يعتمد التّفكيك والنّقد، للتنبيه على ما نراه قصوراً في المنهج، وضعفاً في البناء النظري. وستكون مقاربتنا للموضوع من خلال المحاور الكبرى الآتية:

1- نحو مشروع النّقد الثّقافي.

2- خدمات السُّنَّة للقرآن: دراسة نقدية.

3- علم مصطلح الحديث وتكريس الأزمة.

4- كذبات إبراهيم وأزمة الرواية الحديثية.

1- نحو مشروع النّقد الثّقافي:

يمثِّل علم الحديث وتوابعه علامةً فارقة في تاريخ العلوم الإسلامية، لما شكلَّه هذا العلم من ارتباط وثيق بما سمّي السنّة النّبوية من جهة، وبحجم المكانة التي تبوَّأها على مرّ التاريخ، وإسهامه، بشكلٍ كبير، في مجالات معرفية أخرى، كالتّفسير، والأصول، والتاريخ.

لم تكن كلّ هذه التجلّيات بعيدة عن النّظرة التي أُحيطت بها العلوم الإسلامية عموماً، فقد ظنّ الكثيرون أنّ ما يرتبط بالمقدَّس لا بدّ من أنْ يصطبغ بلونه، وأنّ المجالات المعرفية الإسلامية مجالات بعيدة عن النّقد، والتّفكيك، والتحليل، في حين أنّ الواقع الموضوعي يفترض إعادة النّظر في هذا التوجُّه الفكري، وفي هذه النّظرة المنحصرة في دلالاتها التّاريخية، وغير المراعية للشّروط الموضوعية؛ التي ينشأ ضِمنها الفكر، أو تتأسّس عبْرها المعارف والعلوم، فإمكانية الخطأ، ونسبية العلوم هي الطريق الوحيد للتأسِيس لما يسمّى التجديد الديني، أو الإصلاح الديني، دون الإبقاء على البُنى التّأسيسية بعيدةً عن سهام النّقد، بدعوى مجاوَزتها القنطرة، أو أنّ الأوائل لم يتركوا لمنْ لَحِقهم أيّ مجال للزّيادة والنقصان.

لقد كانت هذه العقلية تصادِر الحقّ في التّفكير، وتلغي كلّ دور تأسيسيّ، أو تجديدي، أو إصلاحي يمكنه أنْ يشكِّل الخطوة الأولى نحو نقدِ المعرفة السّلفية، بما فيها بنيات العلوم التّقليدية، وعلى رأسها علم الحديث، وظللنا نجترُّ كلّ هذه المقولات اللّاواعية، والخارجة عن تاريخها، إلى أنْ ظهرت معارف جديدة، وآليات أسهمت، بشكل كبير، في تشكيل رؤية نقدية، مفادها البحث عن مكامن الخلل في هذه البنية، ووفق منطقها الداخلي، لتسقُط، بذلك، كلّ أركان هذا الصرح، إذا لم تكن مبنية على أُسُسٍ قويمة تضمن لها الاستمرارية والخلود. أو تستمرّ إذا كانت هذه الأدوات النّقدية غير قادرة على التّعبير، أو الكشف عمّا يمكن أنْ يعدَّ خللاً في هذه البنية.

حينما نتحدّث عن علم الحديث، فإنّنا بصدد الإشارة إلى مجموعة من المصطلحات والقواعد والتأصيلات، التي أسهمت في تكوين ما سمّي: العقل الإسلامي، على امتداد هذه القرون الطويلة. ولعلّ موضوع خدمات السُّنّة للقرآن الكريم، كما أصَّل لها عِلْمَا التّفسير، وأصول الفقه، أحد المواطن التي تحتاج إلى دراسة مكثّفة، واستيعاب لمضامين هذا الخطاب التّراثي. فالخطورة ليست في التّقعيد والتّأصيل فحسْب، بل في امتدادات هذه القواعد والتّأصيلات على الواقع الإسلامي والإنساني، حين تصير هذه القواعد منشأً طبيعياً لكلّ المتناقضات، وحاضنةً لأشكال التطرّف العقدي، والديني، والفكري، وهذا وحده مدعاةٌ لتسليط الأضواء على بعض جوانب هذا الموضوع، وإماطة اللّثام عن بعض ما يكتنفه من غموضٍ ساهمت في تشكيله ثقافةٌ سلفيةٌ بتركيبتها المعقّدة، على امتداد هذا التاريخ الطويل.

لا شكّ في أنّ العديد من الباحثين طرَقوا موضوع السُّنّة وإشكالاتها قديماً وحديثاً، وخصّص بعض المعاصرين مشروعهم الفكري لإعادة بناء ما تقوَّض من هذا الصرح، وعلى رأسهم جماعة القرآنيين[1] بمختلف تلاوينها، كما أكَّدُوا وجوب تفعيل قواعد نقد المتن كما أسَّس لها الأوائل، بعرض هذا الموروث الثّقافي والديني على موازين القرآن الكريم، والعقل، والمنطق، والعِلم[2]. وعلى الرّغم من كلّ هذه الجهود والمحاولات، ما زال الموضوع يثير العديد من الإشكالات المعرفية، والعوائق المنهجية؛ التي تقتضي من الباحث أنْ يخوض معركة التّحرير الثّقافي، انطلاقاً من الكشف عن هذا الخطر المترامي في العقلية الدِّينية السّلفية. وذلك بغربلة هذا الموروث الرِّوائي ليتميَّز الخبيث من الطيّب، ويتبوّأ العقل الإنساني المكانة اللائقة به. ولعلّ أهمية البحث تنبع من هذا المعطى، حيث أصبحت السُّنّة (الروايات) محكَّمة على القرآن، ووحياً مثله، وقاضيةً عليه، لا يُفهم إلّا في ضوء مروياتها، ولا يكتمل إيمان المرء إلا بالإيمان بها. فمن هنا وجب كشف النّقاب عن بعض المسَلَّمات المعرفية، وتسليط الضّوء على ظاهرة الوحي، والحديث بإسهاب عن خدمات السنة للقرآن، نزولاً بالقارئ إلى المجال التطبيقي، الذي سيوضِّح صدق هذه النظرية الحديثية، أو بطلانها، وفق ما أصَّل لها علماء الحديث، والتفسير، والأصول.

2- خدمات السُّنَّة للقرآن - دراسة نقدية:

2-1- القرآن الكريم هو الوحي وحده:

لعلّ قراءة واعيةً لنصوص القرآن الكريم توضّح، بما لا يدع مجالاً للشكّ، أنّ القرآن هو الوحي الذي أوحاه الله إلى رسوله الكريم، وأمره بتبليغه، وغير هذا هو الافتراء على الله ورسوله. ولمعرفة هذه الحقيقة، لنقرأ قوله تعالى: {وَالنَّجْمِ إِذا هَوَى * ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوَى * وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحَى} [النّجْم: 1-4]. فالصّاحب، هنا، هو القرآن الكريم، يصحب النّاس في حياتهم الخاصة والعامة طلباً للهداية، ويؤكّد أنّه وحيٌ من الله، وليس أماني يتلوها.

ولننظر إلى قوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحَى} [النّجْم: 4]، يتبيّن لنا أنّ الضمير (هو) يعود على القرآن؛ لأنّ رسول الله لم يأتِ قومه بغير القرآن، بل ثبت العكس، وهو أنّه نهاهُم عن كتابة أيّ شيء غير

1- توصيف يُطلق على جماعة تعتقد بأنّ القرآن وحده كافٍ في عملية التشريع، وتنكر كلّ ما خالفه من أحاديث نبوية، أنشأها أحمد صبحي منصور، ويُدعَون، أيضاً، أهلَ القرآن.

انظر ما كتبه أحمد صبحي منصور حول منهجهم في كتابه: القرآن وكفى، ملف pdf، على الرابط التالي:

https://www.goodreads.com/ebooks/download/9374095

2- من بين أهمّ الدراسات المعاصرة في هذا الباب، انظر:

- الكردي، إسماعيل، نحو تفعيل قواعد نقد متن الحديث: دراسة تطبيقية على أحاديث الصحيحين، دار الأوائل، دمشق، ط1، 2002م.

- إسلامبولي، سامر، تحرير العقل من النقل، دار الأوائل، دمشق، ط1، 2000م.

القرآن، وإنّما أتاهم به ينير لهم الطريق، ويجاهدهم به جهاداً كبيراً، ليهديهم للتي هي أقوم، ومن ثمة كانت مشكلة قومه معه بسبب هذا القرآن؛ الذي أوحاه الله إليه، وليس بسبب روايات تاريخية لم تكتب إلا في حدود قرنين بعد وفاته: {وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذا إِلاّ إِفْكٌ افْتَراهُ وَأَعانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ} [الفُرقان: 4]{وَقالُوا أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً} [الفُرقان: 5]... فتبين أنّ كلّ هذه التقوّلات والتّطاول، في مواجهة ما جاءهم به الرسول الكريم، كان بسبب القرآن الكريم، ولو كان غير ذلك لصرّح الله به: {وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ} [فُصّلَت: 26] {وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} [سَبَأ: 31].

غير أنّ الفهم التّجزيئي[3] لنصوص القرآن الكريم لا يوصل القارئ إلى فهم مستوعبٍ لطبيعة الموضوع الذي نحن بصدده، ويبعده عن النظرة الموضوعية بالمعنى الذي تحدّث عنه باقر الصدر في كتابه (التفسير الموضوعي). ولو حاول القارئ، أو الباحث، أنْ يفهم نصوص القرآن الكريم فهماً موضوعياً ينبني على الاستقراء والتتبع الدقيق لمفردات القرآن الكريم، ومفاهيمه، وسوره، وقصصه، لقلّص، بشكل كبير، من هوامش القراءة التّجزيئية. فقوله تعالى: {وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحَى} [النّجْم: 3-4]، تعني القرآن الكريم؛ لأنّه هو الموحى به إلى رسول الله: {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِما أَوْحَيْنا إِلَيْكَ هَذا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ} [يُوسُف: 3]، {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعَام: 19] و{وَلا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ} [طه: 114] و{وَاتْلُ ما أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتابِ رَبِّكَ} [الكهف: 27].

إذاً، القرآن -حسب هذه الآيات وغيرها- هو وحي الله إلى رسوله، وهو المأمور بتبليغه، والإنذار به: {قُلْ إِنَّما أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ} [الأنبيَاء: 45] {*كَذَلِكَ أَرْسَلْناكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} [الرّعد: 30] فهل، بعد هذا البيان القرآني، نقول: إنّ الوحي شيء غير القرآن، وإنّنا مأمورون بالإيمان بشيء غير الوحي القرآني؟ قال تعالى: {فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ} [المُرسَلات: 50]، والحديث في القرآن الكريم هو الكتاب المنزَّل: {اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ} [الزُّمَر: 23] وقال: {فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ} [الطُّور: 34]، فمن ادّعى غير هذا الذي

3- هو ما عبر عنه باقر الصدر بالتفسير التجزيئي. انظر:

الصدر، محمد باقر، مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن، دار التوجيه الإسلامي، الكويت، نُشِر إلكترونياً، وأخرج فنياً برعاية شبكة الإمام الحسين للتراث والفكر الإسلامي، ملف pdf.

انظر بخصوص هذا الموضوع:

مهدوي، مصطفى كمال، البيان بالقرآن، على الرابط الآتي:

http://www.libya-watanona.com/adab/mmehdawi/mm10046a.htm

قرّره القرآن، فقد افترى على الله كذباً: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ} [الأنعام: 93].

2-2- علاقة السنة بالقرآن الكريم: (توافق، بيان، تشريع):

درجت مجموعة من العلماء، قديماً وحديثاً، على حصر خدمات السنة للقرآن الكريم في ثلاثة أنواع: قال الشّافعي: «فقلت له: كلّ ما سنّ رسول الله مع كتاب الله من سُنّة، فهي موافقة كتاب الله في النصّ بمثله، وفي الجملة بالتّبيين عن الله، والتبيين يكون أكثر تفسيراً من الجملة. وما سنّ ممّا ليس فيه نصُّ كتاب الله فبفرض الله طاعته عامّة في أمره تبعناه»[4].

أ- التوافق مع القرآن:

لقد كان رسول الله بحقٍّ يصدُر عن أوامر ربِّه، ولا يخالف النّاس إلى ما ينهاهم عنه، فكان، بذلك، قرآناً يمشي بين النّاس، يسُوسهم بالوحي القرآني، ويهديهم إلى سبل الرشاد، وقد جاءت نصوص القرآن الكريم تحدِّد وظيفته بالبلاغ والإنذار: {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَما أَرْسَلْناكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلاّ الْبَلاغُ} [الشّورىٰ: 48] {وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ} [النُّور: 54]، كما كانت علاقته بالقرآن هي علاقة أيّ واحد منّا مع الوحي، فقد أُمر بالاتِّباع فحسب: {وَإِذا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ ما يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاّ ما يُوحَى إِلَيَّ} [يُونس: 15] {وَاتَّبِعْ ما يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ} [يُونس: 109] {فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا بَيانَهُ} [القِيَامَة: 18-19] إذاً، أقوال رسول الله وأفعاله كانت منبثقة من الوحي القرآني، توافقه ولا تخالفه، كما صرّح بذلك القرآن نفسه.

ب- بيان القرآن وتفسيره:

يقول تعالى: {قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتابٌ مُبِينٌ} [المَائدة: 15] {هَذا بَيانٌ لِلنّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عِمرَان: 138] {وَلَقَدْ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ آياتٍ بَيِّناتٍ وَما يَكْفُرُ بِها إِلاّ الْفاسِقُونَ} [البَقَرَة: 99] ترى في هذه الآيات القول الفصل بأنّ القرآن مبينٌ، وهو بيانٌ للنّاس، وآياته مبينات. والذي كان شأنُه هكذا، هل يحتاج إلى بيان؟ إنّ دعوى بيان السّنّة للقرآن الكريم، هي اتِّهامٌ لهذا الكتاب المبين بالغموض والإبهام، وهذا ما يأباه القرآن، ويصرِّح بخلافه. فكيف يأمر الله -سبحانه- النّاس بتدبّر شيء لا يمكن فهمُه؟ قال تعالى:

4- الشافعي، محمد بن إدريس، الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت. ص 212.

{كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبابِ} [ص: 29]، وقال: {أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفالُها} [محمَّد: 24]، وقال: {وَلَقَدْ يَسَّرْنا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ} [القَمَر: 17].

ولمعترض أنْ يقول: إنّ الآيات، من مثل قول الله: {وَأَنْزَلْنا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنّاسِ ما نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} [النّحل: 44] {وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدَىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النّحل: 64] {إِنّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِما أَراكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيماً} [النِّساء: 105]، تبيِّن أنّ رسول الله كانت مهمّته البيان، ومن ثم، السُّنة مبيِّنة للقرآن، ومفسِّرة له، ما يجعلنا نقف وقفة تدبّريةً مع هذه الآيات لمعرفة معانيها.

إنّ الآيات تنطق، بلسان صدق، أنّ وظيفة رسول الله هي أنْ يبيِّن للناس ما نُزِّل إليهم من الذّكر، وهذا البيان غير مرتبط بشرح لفظ، أو تفسير غامض، أو تخصيص عام، أو تقييد مطلق، أو غيرها من الإشكالات؛ التي أفرزتها سلطة اللّغة؛ التي صارت سلطة رمزية تحدّد للإنسان إطاره المرجعي والثقافي. وإنّما البيان النبوي كان مرتبطاً ببيان القضايا المختلف فيها بين النّاس، والتّي تقطّع أمر الناس من أجلها زُبراً، فكانت مهمّة رسول الله البيان الشافي للأسئلة الإنسانية الّتي يطرحها عقل الإنسان في كلّ زمان ومكان، عن حقيقة البعث، والجزاء، والقيامة، والوجود الإلهي، وغيرها من القضايا التي أجاب عنها رسول الله باعتباره مبلِّغاً عن الله، وذلك ليبيِّن للناس أنّ ما أنزل إليهم هو الحق من ربهم، فيؤمنوا به، فتخبت له قلوبهم[5].

وانظر إلى البيان الإلهي: {وَما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلاّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدَىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [النّحل: 64]، ترى فيها حقيقة ما أقررناه سابقاً، فلقد كان رسول الله بحقٍّ يبيِّن للنّاس؛ الذي اختلفوا فيه كأمر السّاعة: {عَمَّ يَتَساءَلُونَ * عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ} [النّبَأ: 1-2] أو كُتب الله: {وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتابِ لَفِي شِقاقٍ بَعِيدٍ} [البَقَرَة: 176]، أو البعث: {وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ * لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كانُوا كاذِبِينَ} [النّحل: 38-39]، وغيرها من القضايا المختلف فيها. إذاً، البيان النبوي غير مرتبط بما قرّره العلماء، وضمَّنوه مباحث علم الحديث.

ولمزيد من البيان، نسوق الأمثلة الآتية؛ التي توضِّح خطورة هذه الدعوى، وتبيِّن تهافتها، وذلك من خلال كتاب التفسير من الجامع الصحيح للإمام البخاري:

5- انظر ما كتبه حول البيان القرآني: بوهندي، مصطفى، التأثير المسيحي في تفسير القرآن، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2004م، ص 27.

*** انشقاق القمر:**

أورد الإمام البخاري، في تفسيره قوله تعالى: {وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا} [القَمَر: 1-2]، خمسة أحاديث: اثنان منها عن عبد الله بن مسعود، والثالث عن عبد الله بن عباس، والرابع والخامس عن أنس. ولنأخذ حديث أنس نموذجاً:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: «إن أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم آيةً، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما»[6].

هذا الحديث فسّر به الإمام البخاري قوله تعالى: {وَانْشَقَّ الْقَمَرُ} [القَمَر: 1]، معتبراً إيّاه مفسّراً للآية، ومبيِّناً لها، بيد أنّه بقليلٍ من التأمُّل، يتبيّن لنا خطأ هذا الرّبط؛ لأنّه يحمل مخالفةً صريحة لنصوص القرآن، نشرع في بيانها فيما سيأتي:

فالحديث فيه سؤال أهل مكّة لرسول الله أن يريَهم آيةً، فأجابهم بانشقاق القمر، وهذا يخالف قوله تعالى: {وَما مَنَعَنا أَنْ نُرْسِلَ بِالآياتِ إِلاّ أَنْ كَذَّبَ بِها الأَوَّلُونَ} [الإسرَاء: 59]، وقال: {وَقالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آياتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّما الآياتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّما أَنا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ} [العَنكبوت: 50-51]. فالآيات توضّح أنّ المشركين طالبوا بالآيات، فأجابهم القرآن بأنّ الآيات مُنِعت، وأنّ عصر المعجزات والخوارق انتهى بمجيء الآية الكبرى؛ التي ستواكب تطوّر العقل البشري، إلى أنْ يرث الله الأرض ومن عليها.

رفض القرآن الكريم الاستجابة لمطالب الكفّار وتعَنُّتهم بإنزال آيةٍ حسّية: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هادٍ} [الرّعد: 7] كما نهى رسول الله أنْ يرضخ لمطالبهم، ويتحسّر على تعنّتهم وإصرارهم: {طسم * تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ * لَعَلَّكَ باخِعٌ نَفْسَكَ أَلاّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّماءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْناقُهُمْ لَها خاضِعِينَ} [الشُّعَرَاء: 1- 4] قال: {وَإِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْراضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّماً فِي السَّماءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْجاهِلِينَ} [الأنعَام: 35]. كما بيّن القرآن سبب منع الآيات، وهو أنّ هؤلاء القوم لم يطلبوها للاهتداء بها، وإنّما كان قصدهم التعجيز، والتعنّت: {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الأَلِيمَ} [يُونس: 96-97]، وقال: {وَلَوْ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ باباً مِنَ السَّماءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقالُوا إِنَّما سُكِّرَتْ أَبْصارُنا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} [الحِجر: 14-15].

6- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب: مناقب الأنصار، باب: انشقاق القمر، ح 3655، على الرابط التالي:
http://www.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=3664&#38>;idto=3667 &bk_no=0&ID=2174

إذاً، الحديث، الذي أدرجه البخاري في تفسيره للآية، ليس بياناً لها، بل هو مخالف لها، الشيء الذي يدفعنا إلى قراءتها في سياقها القرآني، للتعرف إلى معناها:

يقول تعالى: {اقْتَرَبَتِ السّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ * وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ} [القَمَر: 1-2]، فالآية تشير إلى قرب السّاعة؛ التي أصبح أمرها قريباً، بختم الرسالات السّماوية، كما قال تعالى: {فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاّ السّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها} [محَمَّد: 18]. كما توضّح هذه الآية أحد تجليات السّاعة، وانقلاب النظام الكوني البديع، يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسّموات، وذلك بانشقاق القمر. وهذا الانشقاق مرتبط بهذا الخلل في الكون ككلّ، فقد أخبر القرآن بانشقاق السّماء: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّماءُ بِالْغَمامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً} [الفُرقان: 25]، فإذا انشقّت السّماء انشقّ القمر بالضّرورة؛ لأنّه موجودٌ فيها: {تَبارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيها سِراجاً وَقَمَراً مُنِيراً} [الفُرقان: 61].

*** المحاجّة بين آدم وموسى:**

أورد الإمام البخاري، في تفسيره قوله تعالى: {فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى} [طٰه: 117]، حديثاً يقول فيه أبو هريرة عن رسول الله: «حاجَّ موسى آدم، فقال له: أنت الذي أخرجت النّاس من الجنّة بذنبك، وأشقيتهم، قال آدم: يا موسى أنت الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه. أتلومني على أمرٍ قد كتبه الله عليَّ قبل أنْ يخلقني، أو قدّره الله علي قبل أنْ يخلقني؟ قال رسول الله: فحجَّ آدم موسى»[7].

عَدَّ الإمام البخاري الحديثَ السّابق مفسّراً للآية، ومبيّناً لها، على اعتبار أنّ السُّنّة مبيِّنة للقرآن، ولا يمكن أنْ يفهم إلا في ضوئها، غير أنّ هذا الرّبط بين الآية والحديث يحمل مجموعة من المخالفات؛ التي تتضمنها الرواية، نجملها فيما يأتي:

- هل أخرج آدم الناس من الجنة؟

يحمل الحديث مخالفة صريحة لنصوص القرآن الكريم، ففيه يقول موسى لآدم: «أنت الذي أخرجت النّاس من الجنّة بذنبك، وأشقيْتهم»، فآدم لم يُخرِج النّاس من الجنّة إلى الأرض؛ لأنّ حياته على الأرض كانت قراراً ربّانياً، قبل أنْ يخلق آدم وذريّته: {وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً} [البَقَرَة: 30] إذاً، الهبوط إلى الأرض هو ما قضاه الله، وأراده، كما أنّ الجنة، التي دخلها آدم، ليست جنّة الخلد، إنّما هي جنة أرضية له ألّا يجوع فيها، ولا يعرى، كما أنّه لا يظمأ فيها، ولا يضحى، فهي تجربة كلّ إنسان على الأرض فيها تسخير، وأمر، ونهي، وتحمّل مسؤولية الأفعال.

7- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: قوله: {فَلا يُخْرِجَنَّكُما مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى}، ح 4396.

- هل آدم سبب شقاء ذريته؟

ما زال الحديث يحمل مفاهيم مخالفة لما قرّره القرآن، حيث يرد في متنه: «أنت الذي أخرجت الناس من الجنة بذنبك وأشقيتهم»، وهذا ما يأباه القرآن، حين قرّر أنّ معصية آدم كانت نسياناً: {وَلَقَدْ عَهِدْنا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً} [طٰه: 115]، والنّسيان خارج عن طاقة الإنسان: {لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلاّ وُسْعَها} [البَقَرَة: 286]، وتحمل آدم نتائج معصيته بأن أُخرِج من نعيم الجنة إلى شقاء الأرض، فتاب الله عليه: {وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَباهُ رَبُّهُ فَتابَ عَلَيْهِ وَهَدَى} [طٰه: 121-122]، وبعد هذه التّوبة لم يبق لأحدٍ الحقّ في أنْ يتمسّك بهذا الذّنب ليبرِّر معصيته، ويتستّر على جرائمه: {وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَنْ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسانِ إِلاّ ما سَعَى} [النّجْم: 37-39].

- مكان المحاجاة[8]:

يخبر الحديث عن محاجاة موسى وآدم، ولم يتحدّث لنا عن مكان المحاجاة، فآدم توفي قبل موسى بقرون طويلة، فهل يعقل أنْ يلتقيا بعد وفاتهما؟ وما هو المكان الذي التقيا فيه؟ وهل يمكن للميّت أنْ يتحدّث بلْهَ أنْ يحاجج؟ وهكذا، هناك مجموعة من الأسئلة تتبادر إلى ذهن مَن يقرأ الحديث، ولا تجد لها جواباً يمكنه أنْ يشفي غليل السّؤال، سوى أجوبة لا تستطيع أنْ تقنع نفسها، متناقضة مع منطقها، عمدتها الظنّ: {وَما يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاّ ظَنّاً إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً} [يُونس: 36].

- عقيدة الجبر على الأفعال:

يحاول الحديث أنْ يمرِّر عقيدة من أخطر العقائد على المسلمين، وهي عقيدة الجبر على الأفعال، وذلك من خلال جواب آدم على سؤال موسى: «أتلومني على أمرٍ قد كتبه الله عليّ قبل أنْ يخلُقني، أو قدّره الله عليّ قبل أنْ يخلقني؟». فالحديث مخالف للمفاهيم والتصوّرات التي جاء القرآن لتصحيحها، وذلك بتحميل كلّ فرد مسؤولية أفعاله، وجريرة أخطائه: {إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها} [الإسرَاء: 7]. فرميُ اللّوم على القدَر استحضار لعقلية جبرية تلصق كلّ ما تقترفه أيديهم بما سمّوه قدراً، فهذه طبيعتهم، كما تحدث القرآن نفسُه: {*وَقالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما عَبَدْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ} [النّحل: 35] والقرآن جاء ليصحّح هذه العقائد الفاسدة، فكيف ينسبها الحديث إلى نبيّ من أنبياء الله؟

8- يرى البوطي أنّ مكان المحاجة هو عالم البرزخ، أو في عالم الأرواح. البوطي، محمد سعيد رمضان، الإنسان مخير أم مسير، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط2، 1998م، ص 129.

وهناك مجموعة من الآيات توحي بما قد يسمّى جبرية الإنسان. وهذا يحيلنا إلى ما قاله سمير إبراهيم خليل حسن بخصوص الحرية مسؤولية:

«{وَما تَشاؤُونَ إِلاّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً} [الإنسَان: 30].

{وَما كانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلاّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ} [يُونس: 100].

{مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً} [الكهف: 17].

فيسأل مستنكراً: كيف يشاء، ويهتدي الإنسان، وقد أذن وشاء الله أن يضلّه ولا يرشده؟

فيبيّن أنّه لا يدري، ولا يعلم، أنّ الله شاء أن يخلقه، فصنعه، وجعل له حرية ومسؤولية فيما يشاء ويعمل: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلُونَ} [الصَّافات: 96].

فما يعمله بحريته ومسؤوليته هو من خلق وصنع الله، فما يشاؤه شاءه الله، وأذن به، فيما حمله من أمانة. فعندما يشاء الإنسان أن يؤمن، ويعبد الله وحده، بما فيه من منهاج مؤصّل من قبل الصانع، يهتدي صنعاً، وعندما يشاء الإنسان أن يكفر، ويفسق على الله، بما فيه من منهاج لم يؤصّل من قبل الصانع، تهلك قوّة المنهاج لديه، وتنطلق منه قوّة منهاج (إبليس) يغويه فيضلّ صنعاً، وفي كلا الحالين، شاء الإنسان ما شاءه الله في صناعته.

الله هو الصانع، وهو الهادي لصناعته، ومن يجهل صانعه وهاديه يضلّ، ولن يجد من يرشده: {مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً} [الكهف: 17]، فلا يستطيع أحد، غير الصانع، أن يهدي مهما كان حبيباً: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ} [القَصَص: 56].

لقد بيّن الله، في أشراطه، أنّه هو المرشد والهادي، لا يشاركه أحد فيما يأمر ويهدي، وبيّن لمَن يبحث عن مرشد وهادٍ غيره أنّ الضلال حقَّ عليه:

{وَلَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ} [النّحل: 93].

فلا يؤمن صنعاً، ويحقّ ضلاله صنعاً، وهو ما تبيّنه {كَلِمَةُ رَبِّكَ} في قول الله:

{إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ} [يُونس: 96]»[9].

9- حسن، سمير إبراهيم خليل، الحرية مسؤولية. على الرابط التالي:

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=175943

ج- الاستقلالية بالتشريع:

تعدّ مسألة استقلالية السُّنّة بالتّشريع من القضايا التي ما زالت تطرح الكثير من التّساؤلات المعرفية، والسّجالات الواسعة بين أقطاب واسعة من الباحثين في الحقل الديني. فاستقلاليتها بالتّشريع، وموازاتها للوحي القرآني، يثيران في النّفس العديد من التساؤلات من قبيل: لماذا نحتاج إلى وحيَيْن؟ ولماذا يستقلّ كلّ وحي بتشريعاته مع أنّ المصدر واحد؟ فالبحث في طبيعة هذه التّساؤلات يحتِّم على الباحث النّظر في هذا الموضوع، ومناقشته على موازين القرآن الكريم.

إنّ قراءة متدبّرة للقرآن الكريم توضّح -كما قلنا- أنّ رسول الله كان لا يصدُر إلا عن أوامر الله المُوحَى بها إليه في القرآن، وكان مأموراً باتباعها: {وَاتَّبِعْ ما يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحاكِمِينَ} [يُونس: 109]، والوحي هو القرآن، كما عرفْنا آنفاً: {وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذا الْقُرْآنُ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعَام: 19] {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً} [الشّورىٰ: 7]، كما أنّ وظيفته اقتصرت على البيان والبلاغ، ولم تكن تشريع أحكام لم ينزل بها الوحي القرآني: {وَما عَلَى الرَّسُولِ إِلاّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ} [النُّور: 54] {*يا أَيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ} [المَائدة: 67]، وتشريع أحكام لم ينزل بها القرآن هو التقوُّل على الله: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأَقاوِيلِ * لأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ} [الحَاقَّة: 44-46].

ويزيد البيان الإلهي إيضاحاً لهذه الحقيقة، حقيقة أنّ القرآن هو وحي الله أنزله إلى رسوله تبياناً لكلِّ شيء، فيقول: {وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدَىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ} [النّحل: 89]، فالآية توضّح أنّ كتاب الله هو التّبيان لكلّ شيء، ما فرّط الله فيه من شيء من أمور هداية الإنسان للتي هي أقوم إلا بيَّنها، وأوضح معالمها. فدعوى استقلال السُّنّة بالتّشريع تتعارض مع هذه الآيات المبينات، في شأن الكتاب المفصّل لكلّ شيء، وليس المجمل كما يقولون: {وَلَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلَى عِلْمٍ} [الأعرَاف: 52] {الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} [هُود: 1] {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتابَ مُفَصَّلاً} [الأنعَام: 114]. ولنضرب مثالاً على هذه الاستقلالية، من خلال عقيدة تعدُّ من أهمّ العقائد التي أسَّستْ لها السُّنّة، ووُظِّفتْ لها نصوص قرآنية بغرض تثبيتها، وتمريرها للعقل المسلم، ولنعرض هذه العقيدة على موازين القرآن الكريم ليصدقها، أو يقوم بنسف دعائمها وأسُسها:

*** عذاب القبر[10]:**

يرى مجموعة من العلماء أنّ عذاب القبر ثابتٌ في القرآن الكريم، واستدلّوا بنصوصٍ قرآنية قُرِئتْ بمعزلٍ عن سياقها القرآني، وقُرِئت في سياقات روائية، حوّلت وجهتها إلى حيث تريد، الأمر الذي يستدعي إعادة قراءة هذه الآيات داخل سياقها القرآني، للحصول على فهمٍ سليم وصحيح، يجنِّبنا التقوُّل على الله.

- الغيب كلّه:

إذا كان عذاب القبر من الأمور الغيبية؛ التي تحتاج إلى وحيٍ، فمن أين علِم رسول الله بهذا؟ هل كان يعلمُ الغيب؟ وهل أوحى الله له ذلك في وحيٍ غير القرآن؟

إنّ رسول الله -كما سبق أن ذكرنا- لم يكن يعلمُ الغيب: {قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} [الأنعام: 50]، والغيْبُ لا يعلمُه إلا الله: {قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاّ اللَّهُ} [النَّمل: 65]، والله تعالى لا يظْهِر غيبه إلا لمن ارتضاه لإبلاغ رسالته: {عالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً * إِلاّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً * لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحاطَ بِما لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً} [الجنّ: 26-28]، والغيب يوحيه الله في القرآن؛ لأن القرآن هو الوحي وحده: {تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ} [هُود: 49]، واسم الإشارة (هذا) يعود على القرآن.

- أدلّة المثبتين عذابَ القبر:

الدليل الأول: قال تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ} [إبراهيم: 27].

- روى البخاري، في تفسيره للآية، عن البراء بن عازب، أنّ رسول الله قال: «المسلم إذا سُئِل في القبر يشهد أنْ لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله، فذلك هو قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ}»[11].

10- من الممكن الاطلاع أكثر على كتاب صدر سنة 1994م لأحمد صبحي منصور بعنوان: أكذوبة عذاب القبر والشجاع الأقرع. ملف pdf.

11- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب: التفسير، باب: قوله: {كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ}، ح 4422، على الرابط التالي:

http://www.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?bk_no=0&ID=2467 &idfrom=4431&idto=4434&bookid=0&startno=2

فالحديث -حسب البخاري- مفسّرٌ للآية، وشارحٌ لها، على الرغم من عدم وجود أيّ علاقة بين الآية وعذاب القبر، إلا في ذهن المفسِّر؛ الذي يريد، بهذا الرّبط، أنْ يمرِّر ما شاء، متوسِّلاً بالقرآن حتى تستساغ اللّعبة. ولمعرفة المعنى السّليم للآية، يجبُ استحضار السّياق الوارد فيه الآية، حيث يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ * تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثالَ لِلنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: 24-25].

إنّ التأمّل في هذا المثال؛ الذي ضربه الله للنّاس لعلّهم يتذكرون، يوضّح أنّ الكلمة الطيّبة مثالٌ للوحي الإلهي؛ الذي أصلُه متجذّر في الأرض، يهدي به الله الإنسان سبُل السّلام، وفرعُه متصل بالسّماء؛ لأنّ مصدره الله، الذي أحاط بكلّ شيءٍ عِلماً، والكلمة الخبيثة مثالٌ للوحي الشّيطاني؛ الذي يزخرف به القول غروراً، ليُلبس على النّاس دِينهم. أمّا قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثّابِتِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ ما يَشاءُ} [إبراهيم: 27]، فيخبر، من خلاله الله تعالى، المؤمنين أنّ الله يثبِّتُهم بالقول الثّابت؛ الذي سبق أنْ ضربَ له مثلاً، وهو القرآن نفسُه؛ إذ سمّاه الله قولاً: {إِنّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً} [المُزّمل: 5]{أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ ما لَمْ يَأْتِ آباءَهُمُ الأَوَّلِينَ} [المؤمنون: 68]، ووصفُه بالثابت جاء من كونه يثبِّت المؤمنين: {قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا} [النّحل: 102] {كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَرَتَّلْناهُ تَرْتِيلاً} [الفُرقان: 32] إذاً، الآية لا علاقة لها بعذاب القبر، ولا هُمْ يحزنون.

الدليل الثاني: قال تعالى: {النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ} [غافر: 46].

تعدّ هذه الآية عمدة المثبِتين عذابَ القبر، لأنّها تشير إلى أنّ عرْض النّار على آل فرعون غدوّاً وعشيّاً يكون في القبر، وحجّتهم أنّ (الواو) في الآية هي للتّرتيب، بيد أنّه بالرّجوع إلى سياق الآية، يتبيّن معناها السّليم، وهو أنّ العرض لا يكون إلّا يوم القيامة، وهذا ما صرّح به القرآن: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ} [الأحقاف: 20]، و{وَعَرَضْنا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكافِرِينَ عَرْضاً} [الكهف: 100] {وَتَراهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْها خاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ} [الشّورى: 45]. فالآيات توضّح أنّ عرض النّار يكون يوم يقوم النّاس لرب العالمين، وليس في القبر، كما تريد أنْ تمرِّر الروايات التي قُرِنَت الآية في سياقها، فصارت تعني شيئاً آخر لا علاقة له بسياق الآية. أمّا (الواو) الفاصلة بين الآيتين، والتي أدّت إلى فهم الآية بهذا المعنى، فمثالُها موجودٌ في القرآن الكريم: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكائِهِمْ شُفَعاءُ وَكانُوا بِشُرَكائِهِمْ كافِرِينَ * وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ} [الرُّوم: 11-14]. لو تأمّلت الآية جيداً لم تجد فيها أيّ إشكال

يعكّر عليك فهمك؛ إذ القرآن يعتمد أسلوب التّقديم والتّأخير، فبدل أنْ يقول: ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب النار يعرضون عليها غدواً وعشياً، قال: {النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ} [غافر: 46]، فأنت ترى أنّ الآية تخبر أنّ آل فرعون ينتظرهم عذاب شديد يوم تقوم الساعة، وهذا العذاب هو العرض على النّار غدوّاً وعشيّاً بمعنى الخلود فيها.

وعلى فرض أنّها تعني عذاب القبر، فالآية مكيّة، حسب ترتيبهم وتصنيفهم لها، ففي حديث عائشة: «أنّ يهودية كانت تخدُمها، فلا تصنع عائشة إليها شيئاً من المعروف إلا قالت لها اليهودية: وقاك الله عذاب القبر. قالت عائشة: فدخل رسول الله عليّ، فقلت: يا رسول الله؛ هل للقبر عذابٌ قبل يوم القيامة؟ قال صلى الله عليه وسلم: لا. مَن زعم ذلك؟ قالت: هذه اليهودية لا أصنع لها شيئاً من المعروف إلا قالت: وقاكِ الله عذاب القبر. قال: كذبَتْ يهود وهُمْ على الله أكذب. لا عذاب دون يوم القيامة. ثمّ مكث، بعد ذلك، ما شاء الله أنْ يمكث، فخرج ذات يوم نصف النّهار، مشتملاً بثوبه، محمرَّة عيناه، وهو ينادي بأعلى صوته: القبْر كقِطع اللّيل المظلِم. أيّها النّاس لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً وضحكتم قليلاً. أيّها النّاس استعيذوا بالله من عذاب القبر، فإنّ عذاب القبر حق»[12].

فإذا كان عذاب القبر مثبتٌ في هذه الآية، التي نحن بصدد دراستها، وهي آية مكية، فكيف لم يعرف رسول الله أنّ عذاب القبر حقٌّ في حديث عائشة، وقد تزوّجها في المدينة لمّا سألَتْه عن ذلك؟ بل قال لها في أوّل الأمر: لا عذاب دون يوم القيامة؟.كما أنّ هذا الحديث نفسه يتناقض مع ما رواه البخاري عن عائشة أنّها سألت رسول الله عن عذاب القبر، فقال: «نعم عذاب القبر حقٌّ»، ففي الحديث الأوّل كان لا يعرف عذاباً دون يوم القيامة، بل أنكر ذلك على اليهودية، وفي الحديث الثّاني عرف أنّه حق للوهلة الأولى. فتأمّل.

الدليل الثالث: قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ وَذُوقُوا عَذابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ} [الأنفال: 50-51].

إنّ المتأمّل في هذه الآية لا يجد فيها أيَّ دلالةٍ على عذاب القبر، لأنّ ضرْب الملائكة للكفّار يكون يوم القيامة: {*وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ قالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ ما أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظّالِمُونَ فِي غَمَراتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ باسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آياتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ * وَلَقَدْ جِئْتُمُونا فُرادى كَما خَلَقْناكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ ما خَوَّلْناكُمْ وَراءَ ظُهُورِكُمْ وَما نَرى مَعَكُمْ شُفَعاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ ما كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} [الأنعام: 93-94]. فالآية أوضحت أنّ الملائكة تبسُط أيديها

12- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، كتاب: الجنائز، باب: في العذاب في القبر، ح 4281، على الرابط التالي:
http://www.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=4283&#38>;idto =4300&bk_no=87&ID=799

لضرب الوجوه والأدبار، تسخَر من الذين كفروا بدعائهم لإخراج أنفسهم من العذاب، وما هم بخارجين منه جزاء ما قدّمَتْ أيديهم، ولا يحابي ربُّك أحداً.

والضّرب لا يكون بعد التوفّي مباشرة: {فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ} [محَمَّد: 27]؛ لأنّ بعد التوفي هناك الرّقود في القبور، وإنّما هذه خاصية من خصائص القرآن الكريم، حيث يترك الفجوات بين المشهد والآخر، يملؤها الخيال، ويسبح فيها نظر الإنسان، وهي خاصية متبعة في مجموعة من الآيات: {إِنَّ الَّذِينَ تَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ} [النِّسَاء: 97]، {الَّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ما كُنّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [النّحل: 28].

وبناء على ما سبق، ليس هناك عذاب دون يوم القيامة حسب القرآن الكريم: {وَلَقَدْ خَلَقْنا الإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِي قَرارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ تُبْعَثُونَ} [المؤمنون: 12-16]، ولا حياة في القبر؛ إذ الموتى رقودٌ في قبورهم لا يشعرون أيّان يبعثون: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ * أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ وَما يَشْعُرُونَ أَيّانَ يُبْعَثُونَ} [النّحل: 20-21]، ويوم ينفخ في الصّور تَراهم يهرعون إلى ربهم لا يدرون ما حلّ بهم: {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ الأَجْداثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ * قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا هَذا ما وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ} [يس: 51-52]، فلو كانوا يعذّبون في قبورهم، وتعرَض عليهم النّار غدوّاً وعشيّاً لما فوجئوا هذه المفاجأة.

3- علم مصطلح الحديث وتكريس الأزمة[13]:

يُعدُّ علم الحديث من العلوم التي شَكَّلَت، وما زالت تشَكِّل، مركزية مهمّة في كلّ القراءات؛ التي تتناول الدين من قريب، أو من بعيد، وأصوله وضوابطه ما زالت تخيّم على الفكر المؤسِّس لبنية الفكر الديني المعاصر على الرغم من تطوّر العلوم، وعلى الرغم من تقدّم المقاربات الإنسانية المختلفة. يأتي حديثنا عن هذا العلم الضارب في عمق الذاكرة الإسلامية، في هذا السياق المتشعِّب الأطراف، وتتميماً، أيضاً، لما كتبناه سابقاً حول: (خدمات السنّة للقرآن)، إضافة إلى البعد القدسي الذي يحتلّه هذا العلم، باعتباره، على مدى عصور طويلة، خصّيصة من خصائص هذه الأمة، بها قامت، وبها ستقوم. ومحاولة منّا للخروج من أسْر ثقافة أثرية، نقوم بهذه الدراسة النقدية لأهمّ القواعد المؤسِّسة لعلم مصطلح الحديث، لنرى مدى علميتها من

13- يتميز أهل السنة بثلاث خصائص أساسية تكرّس أزمة ثقافتهم: الروايات، والتبرير، والرجال. انظر: الورداني، صالح، أهل السنة شعب الله المختار، مكتبة مدبولي الصغير، ط1، 1996م، ص25 وما بعدها.

عدمها، وصدقها من بطلانها، عبر محاكمتها لمنطقها نفسِه، ومحاكمتها للقرآن باعتباره أحد الأصول التي تزعم هذه العلوم القيام عليه.

3-1- القرآن ومفهوم السُّنّة:

ما من علم أسَّسَه القدماء، تحت وقع ظروفهم وسقفهم المعرفي، إلّا زعموا أنّ القرآن أحد الأصول المركزية في هذا البناء. وبالتعمّق في مثل هذا الادّعاء، نجد أنّ القرآن قد وُظِّف توظيفاً خطيراً لخدمة كلّ المشاريع؛ التي كانت تهدف، بالأساس، إلى إثبات شرعيتها، عن طريق المرور من هذا الطريق، الذي يمكنه أنْ يضمن لها البقاء، والشرعية المزعومة. ولفهم هذا المعطى الخطير في بنية العلوم الإسلامية، وعلى رأسها علم الحديث، وما يتفرّع عنه من علوم، نقوم، الآن، بمحاولة فهم مفهوم السُّنّة؛ التي يندرج تحتها هذا العلم، ومقارنتها بالمفهوم الذي أعطاه القرآن لهذه الكلمة، وذلك ليتأتّى لنا الخروج من هذا التعميم؛ الذي قد يلقي بظلاله الكلام النظري والمجرّد[14].

عرّفت المعاجم اللغوية السُّنّة بأنّها: «السّيرة حسنة كانت أم قبيحة»[15] **وجميع معاني اللّغة تنحو هذا المنحى في فهم هذه الكلمة، إلّا أنّ هذا المفهوم اللُّغوي سيتحوّل إلى معنى ضيّق في اصطلاح المحدِّثين، ومن سار على دربهم، حيث أصبحت السُّنّة تطلق على سيرة رسول الله من قولٍ، أو فعلٍ، أو تقريرٍ، أو صفةٍ خلُقية راجعة إلى طبائعه النفسية، في حالة الرضا والغضب، سواء كان قبل البعثة، أم بعدها، وبهذا المفهوم الاصطلاحي، صارت السُّنّة واجباً متَّبعاً تحكُمه مجموعة من الروايات الأثرية المنسوبة إلى الرسول، والتي تتحدّث عن كلِّ ما يندرج تحت مسمّى السُّنّة باصطلاح المحدِّثين[16].**

أمّا الفقهاء، فقد كانوا، أيضاً، متأثِّرين بالمفهوم الضيّق للفقه المرتبط بالأحكام الفقهية من واجب وحرام، وغيرها من آليات الاشتغال الفقهي، فجاء تعريفهم للسُّنّة يتناسب واختصاصهم العلمي، فقد أطلقت على: «ما كان من العبادات نافلة منقولة عن النبي، أيْ ما ليس بواجب». وهكذا نرى أنّ هناك تبايناً في المفاهيم بين اللّغة والاصطلاح، قد أملَته ظروف اشتغال كلّ فريق، والأدوات العلمية التي يشتغل بها[17]. والكلّ كان، في

14- انظر مناقشة محمد شحرور للشافعي في الترادف بين النطق والقول، وكذلك الحكمة:
شحرور، محمد، السنة الرسولية والسنة النبوية، دار الساقي، لبنان، ط1، 2012م، ص 59.

15- ابن منظور، أبو الفضل، جمال الدين، لسان العرب، (سنة)، على الرابط التالي:
http://www.baheth.info/all.jsp?term

16- لقد أوضح محمد شحرور، من خلال نقده لمفهوم السنة، عدم إمكانية القول بالوحيين. انظر، مثلاً، دعوته لكيفية تعامله مع السنة النبوية في:
شحرور، محمد، نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2000م، ص 60 وما بعدها.

17- يؤكد نصر حامد أبو زيد أنّ الإمام الشافعي هو أول من وسّع في مفهوم السنة؛ ليصبح كلّ قول للنبي وحياً، ومن ثم ألغى بشرية الرسول، الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2007م، ص 52.

الحقيقة، يوظِّف القرآن من أجل الانتصار لاتجاهه ومنطلقاته الفكرية. فانطلاقاً من القرآن، فعلاً، تمّ التّأسيس لمفهوم السُّنّة في الثقافة الإسلامية، أم انطلاقاً من تأثيرات كلّ مدرسة والاتّجاه الذي تتبنّاه؟

استعمل القرآن الكريم لفظة السُّنّة في العديد من مواضعه وسياقاته، وقد كان المعنى الملازم لهذه الكلمة يبيِّن، من خلاله، أنّ الكون، والتّاريخ، والنّفس البشرية، وكلّ الأمور المرتبطة بالنّسق الكوني تسري وفق سنن الله، ووفق نظامه القانوني المحكَم المتأثِّر بالتّغير والتّبديل: {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً} [الفَتْح: 23] هذه السّنن المبثوثة في الكون بما يضمن للإنسان أنْ يسير على بصيرة من أمره في كلّ مجالات الحياة، هي المحرّك الأساس لحركة التّاريخ والحضارة، في نسقٍ واضحٍ يجنِّب الإنسان مغبّة الخروج عن نسقِها؛ لأنّ أيّ خروجٍ لقوانينها -حسب الطّرح القرآني- هو خروجٌ عن السير والنّظام العامّين في تركيبة هذا الكون: {وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الأَوَّلِينَ} [الأنفَال: 38].

والسُّنن في القرآن ليست نسقاً واحداً[18]، إنّما هي أشكال متعدِّدة، منها ما هو متعلِّق بالسّير العامّ للكون، ومنها ما هو مرتبطٌ بحركة التّاريخ، وتركيبة النّفس البشرية، وغير ذلك من الأمور. وتتميّز هذه السُّنن بخصائص تميّزها من غيرها، لعلّ أهمّها التّتابع والاطِّراد في نسقٍ واحد: {سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنا وَلا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحْوِيلاً} [الإسرَاء: 77].

والمعطى الثّاني أنّ هذه السُّنن مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالإنسان، فهي ملتصقةٌ به غير بعيدة منه، فسُنن التاريخ والمجتمعات تحكُمها علاقة تأثير وتأثّر بالنّسق الإنساني بكلِّ تجلّياته: {إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ} [الرّعد: 11] وهكذا، فالقرآن الكريم يطرح مفهوماً نسقياً لكلمة السُّنّة، من خلال استعمالاته المختلفة لها، وهو مفهوم بعيد كلّ البعد من كلّ المفاهيم الثقافية المرتبطة بواقع الرّواية، وتأثيراتها المختلفة. وعليه، لم يبقَ أيّ مبرِّر للقول: إنّ هذا المفهوم، على الأقلّ، قد أسِّس قرآنياً.

بقيت نقطة أخرى أودُّ الإشارة إليها في هذا المقام، وقد كان المشتغلون في حقل الرِّواية يستمسكون بها في دفاعهم عن مشروعية علمهم، وهي كلمة الذِّكر التي ألصقوها برواياتهم، وادّعوا أنّ الله حفظها بآية {إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحافِظُونَ} [الحِجر: 9] فإقحام مفهوم السُّنّة -حسب الاصطلاحات الثقافية- في هذه الآية تجاوزٌ لمنطقية العلم؛ الذي يُفترض أنْ يدرُس، على الأقلّ، كلمة الذِّكر، كما وردت في سياقاتها القرآنية، وكما وردت داخل هذه الآية؛ التي أرادوا، من خلالها، اكتساب الشرعية لعلمهم المحفوظ من الله حسب فهمهم. فالآية تأتي في سياق محاججة القرآن للمشركين ممّن أنكروا بشرية الرّسل، فتقول: {وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ إِلاّ رِجالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ} [النّحل: 43] فالقرآن، من خلال هذه الآية، يقرِّر بشرية رسل الله، ويطلب سؤال أهل الذّكر ممّن يحفظون هذه الحقيقة؛ أيْ: بشرية الرسل،

18- الكفيشي، عامر، حركة التاريخ في القرآن الكريم، دار الهادي، بيروت، ط1، 2003م، ص 226.

وعدم ارتفاعهم إلى مقامات علوية. وأهل الذكر -حسب نصوص القرآن- همْ من تحمَّلوا تذكير النّاس ببشرية الرّسل؛ التي نقلتها عنهم الكتب الدينية[19] بمختلف مستوياتها، كما مرّ معنا سابقاً.

وأيّاً كان فهمُنا لكلمة الذِّكر، وسواء أكانت قراءتنا لها موفّقة أم غير موفّقة، فالذِّكر -حسب نصوص القرآن- لن يتحوّل، بفعل ثقافة روائية تبحث لها عن الشرعية، إلى مفهوم السُّنّة الثّقافي؛ الذي لم يؤسَّس قرآنياً على الأقلّ، وهذا خلط منهجي خطير، وتوظيف مغرض لمفاهيم الثقافة المتحوِّلة، وإسقاطها على القرآن، من أجل اكتساب القدرة على الدفاع والبقاء.

إن التعامل مع ما يسمى السنة النبوية، بوصفها أصلاً من أصول المنظومة المعرفية الجديدة، بتعبير جمال البنا، يستوجب تصوراً شاملاً لا ينطلق من حقدٍ دفين على هذا التراث، بقدر ما يجب التعامل مع هذا الأصل وفق ضوابط تراعي الشروط الآتية: 1- الوضع في السنّة. 2- مدى سلامة اتخاذ السّند معياراً للصحة. 3- مدى سريان أحكام السنّة[20].

3-2- الصّحابة ومفهوم العدالة[21]:

بعد أنْ رأينا التّأسيس الخطير في بنية العلوم الإسلامية، وعلم المصطلح على وجه الخصوص، نخلص إلى أنّ العلوم الإنسانية لم تؤسَّس على قاعدة قرآنية تسمح لنا، على الأقلّ، بالنّظر إلى الأمور من زاوية علمية بحتة. نزيد الأمر تأكيداً، ونحن نتناول قضية أخرى لها ارتباطات وثيقة بما مضى من الحديث؛ هذه القضية أسَّس لها، أيضاً، صنّاع علم المصطلح، وزعموا أنّ القرآن كان ملهِماً لهم، بدرجة من الدّرجات، في تأصيلهم لهذه القضية. فهل وُفِّق، هذه المرّة، مبدِعونا في تمرير اللّعبة أم لم يُوفّقوا؟ هذا ما سنراه، من خلال حديثنا عن عدالة الصحابة، وخطورتها، بالنسبة إلى منهج يعتمد العلمية في بنيته، كما زعم.

إنّ عدالة الصحابة أمرٌ خطير أسهم في إنشائه فكرٌ تجاوز كلّ المعطيات الإنسانية والبشرية، وتناسى العوامل المختلفة المتحكّمة في بنية الإنسان، من اجتماع، واقتصاد، وسياسة، وبهذا، لن تكون عدالة الصحابة إلّا واحدة من الأمور؛ التي أنشأت الجمود الفكري، واحتضنَتِ التّقليد، حين عَدَّت أنّ ما يصدُر

19- مجموعة من المفسرين تبنّوا أنّ الذكر هو الكتب السماوية السابقة. هذا الرأي لـــ: الطبري 586/7، السيوطي في الدر المنثور 132/5، الشوكاني في الرسائل السلفية، ص 191.

20- البنا، جمال، تجديد الإسلام وإعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية، كتب عربية، (د.ن)، ملف pdf ، ص 435.

21- من الأمور، التي نبه عليها محمود أبو رية، ولها تأثير واضح في أزمة الثقافة السنية هي عدالة الصحابة، فلقد أثبت هذا الأخير نهي النبي صلى الله عليه وسلم في حياته، عن كتابة الحديث، كما تحدث عن الكذب على النبي في حياته وموته، وتفاوت الصحابة في صدق الرواية. انظر:

أبو رية، محمود، أضواء على السنة المحمدية، أو دفاعاً عن الحديث، دار المعارف، ط6، ص 19 وما بعدها.

وقد أفرد، أيضاً، محمود أبو رية كتاباً آخر للحديث عن أحد الصحابة المكثرين من رواية الحديث، وهو أبو هريرة. انظر:

أبو رية، محمود، شيخ المضيرة أبو هريرة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط4، 1993م.

عن الصحابة وعصر الصحابة أمرٌ قد جاوز القنطرة، وبذلك، سمحتْ لكلّ الآراء المحملة باللّامعقول، والبعيدة عن خدمة ومصلحة الإنسان، أنْ ترسِّخ جذورها في الفكر الإسلامي، دون أيّ نقدٍ، أو تفكيكٍ لبنيتها تحت مسمّى العدالة المطلقة[22].

وأنا، هنا، لا أنطلق من حقدٍ على أحدٍ من الصّحابة، كما تزعُم الشّيعة، أو أُكابِرُ لأجعل كلّ الصحابة في ميزان العدالة المطلقة، كما يزعم أهل السُّنّة، إنّما أريد، من خلال إسقاط هذه النّظرية، أنْ أضع قضية على هذا القدر من الخطورة في سياقها التاريخي والبشري. فالصّحابة بشرٌ مهْما أرادوا أنْ يجمِّلوهم لنا، أو يشوِّهوهم، تجري عليهم سُنن الإنسان، كما تجري على غيرهم. وإذا كانوا كذلك فلن نحتاج، بعد ذلك، إلى أنْ نصنع منهم أناساً فوق التاريخ، فالكلّ يأخذ حجمه الطبيعي في زمان النسبية، دون أنْ تكون لنا أيّ خلفيات، أو مسبقات فكرية على هذا الطرف، أو ذاك. ولكي لا أخوض في اللّغط؛ الذي قد تسبِّبه الروايات المختلفة المؤصلة لهذا الموضوع، أذهب إلى القرآن؛ لنستمع إليه في موضوع الصّحبة والصّحابة، وكيف تعامل مع قضية قد تنسف كلَّ إبداع فكريّ يتجاوز عصر الصّحابة، أو يستوعبه.

فقد أطلق القرآن الصّحبة بمفهوم مباين لما تمَّ تداوله في الدِّراسات الحديثية من: «أنّ الصحابة هم الذين آمنوا بالله دون غيرهم، وماتوا على الإسلام»[23] فقال في شأن الابن والوالدين المختلفين في الاعتقاد: {وَإِنْ جاهَداكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وَصاحِبْهُما فِي الدُّنْيا مَعْرُوفاً} [لقمَان: 15] وقال في شأن أصحاب الجنة: {قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوّاكَ رَجُلاً} [الكهف: 37] وقال عن دعوة محمد وقومه: {ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى} [النّجْم: 2] {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاّ نَذِيرٌ مُبِينٌ} [الأعرَاف: 184][24].

وبناءً على ما سبق، الصّحبة غير عاصمة من الزّلل، والخطأ، والنسيان، وغير عاصمة من كلّ العوامل المتدخِّلة في التَّركيبة الإنسانية، فالإنسان يصدُر منه الخير والشرّ، والصّحابة جزءٌ من هذه المنظومة، فمجتمعهم هو من كانت فيه السّخرية من النّاس، والتّنابز بالألقاب، والظُّلم بأشكاله المتعدِّدة: {يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظّالِمُونَ} [الحُجرَات: 11]. والكذب، أيضاً، كان ملازماً للإنسان، حسب الظّروف والعوامل، وهذا هو الإنسان بطبيعته وسجيته:

22- هناك من يعدُّ الخلافة الراشدة نفسها مجرّد حبكة مفتعلة، مزيلاً عن هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي طابعها القدسي، وهذا هو التوجّه الشيعي بشكل عام. انظر:

إدريس، هاني، الخلافة المغتصبة: أزمة تاريخ أم أزمة مؤرخ؟ دار النخيل للطباعة والنشر، ط2، 1995م، ص 53.

23- العسقلاني، ابن حجر، نزهة النظر، تحقيق: محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1409هـ/1989م، ص 88.

24- الصحابة في القرآن والسنّة والتاريخ، سلسلة المعارف الإسلامية 14، مركز الرسالة، على الرابط الآتي:

http://www.4shared.com/postDownload/yMJSWy8_ce/_____.html

{يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ ما لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ} [الصَّف: 2-3]، وقد يكونون جاحدين لنِعَم الله نسياناً أو عمداً، حتّى في أصعب الظّروف: {*يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْها وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً * إِذْ جاؤُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زاغَتِ الأَبْصارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَناجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونا * هُنالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزالاً شَدِيداً * وَإِذْ يَقُولُ الْمُنافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاّ غُرُوراً} [الأحزَاب: 9-12].

سبق أنْ أشرنا إلى ما كتبه محمود أبو رية عن عدالة الصحابة، وهو أحد المحدَثين؛ الّذين تخصّصوا في فنّ نقد الحديث على مستوى السّند، والمتن. لقد أشار النبيّ نفسه إلى مجموعة من المؤشِّرات يتّضح من خلالها أنّ مجتمع الصّحابة ليس مجتمعاً مثالياً، كما يريد أنْ يسوّق بعضهم، ومن ذلك أنّه حذّر من الكذب عليه في حياته، ولا بدّ من أنّ هذا التحذير يتأتّى من نظرة واقعية لأناسٍ يعيشون إنسانيتهم وبشريتهم بكلّ ما تحمله هذه الكلمة من معنى، وإذا كان تحذير النّاس من الكذب قد تمّ في حياة النّبي محمد، فالأمر قد استفحل بموته، وتفشّى، كما أشار إلى ذلك أبو رية، لاسيما بعد مقتل عمر بن الخطاب.

هذا عن جانب الكذب، أمّا جانب التّفاوت بين الصّحابة في الفقه والعلم، فلا يخرج عن النّسق العام الذي يحكُم جميع الناس، فهذه سنّة الله في خلقه، ولن تجد لسنّة الله تبديلاً.

وهكذا، مفهوما الصّحابة والعدالة لم يؤسَّسا تأسِيساً قرآنياً، وإنما أسِّسَا من خلال الثقافة الرّوائية؛ التي أسَّس لها علم المصطلح، فتمّ تغييب مجموعة من الحقائق التاريخية من هذا الاتِّجاه، أو ذاك، وتمّ تمرير الأفكار والإيديولوجيات المختلفة باسم الصّحبة، وباسم العدالة. ولو تجاوَزنا أمر العدالة لسقطْنا في قضية أخرى، مرّرها لنا هذا العلم بمنهجيته غير العلمية، وهي قضيّة الحفظ والضبط؛ حيثُ صارت العدالة توازي الحفظ والضّبط، مع أنّهما متباينان، فرُبّ عدلٍ في أخلاقه -حسب تصوّر العدالة الثّقافي للمشتغلين بالرواية- ضعيف الحفظ، غير ضابطٍ لما يسمع، أو يقول. ناهيك عن مصدرية سماعه هذا، فالكثير من الصّحابة كانت مصادرهم غير إسلامية بفعل التّلاقح والتثّاقف الحاصل بين الأديان، وبين مختلف مكوِّنات الثقافة الإنسانية.

3-3- الاحتجاج بمراسيل الصحابة:

وهذا أحد التّبعات الخطيرة لعدالة الصحابة، فقد صارت مراسِيلُهم، عند العديد ممن أَصَّلوا لهذا العلم، مقبولة دون ميزانٍ، أو فحصٍ نقديٍّ. ولكي نفهم الأمور أكثر، لا بدّ لنا من تعريفٍ لهذا الاصطلاح الحديثي، قال ابن الصلاح: «وصورتُه التي لا خلاف فيها: حديث التابعي الكبير، الذي لقي جماعة من الصحابة

وجالسهم، كعبيد الله بن عدي بن الخيار، ثم سعيد بن المسيب، وأمثالهما، إذا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم»[25].

أمّا مراسيل الصّحابة، فتندرج ضمن هذا المفهوم العامّ للحديث المرسَل. فهي، كما يقول ابن الصلاح: «ثمّ إنّا لم نعد، في أنواع المرسَل ونحوه، ما يسمّى في أصول الفقه: مرسَل الصّحابي، مثلما يرويه ابن عباس، وغيره من أحداث الصحابة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يسمعوه منه؛ لأنّ ذلك في حكم الموصول المسند؛ لأنّ روايتهم عن الصحابة، والجهالة بالصّحابي غير قادحة؛ لأنّ الصحابة كلُّهم عدول، والله أعلم»[26].

والحقيقة أنّ مثل هذا الإسقاط من الصحابي لمحلِّ سماعه، شَكَّل، وما زال يُشَكِّل، مثار جدلٍ في موضوعية هذا العلم؛ إذ إنّ منطقية علم الحديث نفسِه تُبنَى على الإسناد، باعتباره ركيزة أساسية في نقل الأخبار. ولكنْ تَبَنِّي مفهوم العدالة والصحبة، المؤسَّسَين أساساً على ثقافة الرواية، قد خرق النّظام العلمي؛ الذي يزعم صنّاع العلم شرعيته، فالعديد من الصّحابة، الذين اندرجوا تحت المفهوم الموسّع للصحبة، كما أصَّل لها الروائيون، لم يشهدوا العديد من الوقائع، والأحداث، والأقوال، لصِغَر سِنِّهم، كعبد الله ابن عباس، وأبي سعيد الخدري، ومحمود بن الربيع، وغيرهم كثير. وهذا كيلٌ بمكيالين، وخلط منهجي كبير في بنية تزعم أنّها تقوم على أسُس السَّند، والدقّة في التحرّي. وهي تؤسِّس لمنهجية بعيدة عن كلّ هذا إذا اقتضى الأمر غير ذلك، وتحاول قدْر الإمكان أنْ تحافظ على شرعيّتها، عن طريق التّوظيف الإيديولوجي للقرآن، والقراءات الاعتباطية له.

3-4- التّدليس وتكريس الأزمة:

وهذه قاعدة أسّس لها عِلم المصطلح، لكنّ تطبيقَها على أرض الواقع ظلّ رهين النظرية، بسبب المفهوم الخاطئ لما أشرنا إليه سابقاً للصّحبة والعدالة، فكان المفهوم الموسَّع للصّحبة والعدالة أزمة حقيقية مُرِّرَ منها العديد من الأمور غير العلمية، وغير المعقولة، على الرّغم من القواعد التي كانت تحاول أنْ تؤطِّر هذه المسألة، وقاعدة التّدليس واحدة منها.

يقول ابن الصلاح عن التدليس: «وهو أن يروي عمّن لقيه ما لم يسمع منه، موهمًا أنّه سمعه منه، أو: عمّن عاصره، ولم يلقه، موهمًا أنّه قد لقيه وسمعه منه، ثمّ قد يكون بينهما واحد، وقد يكون أكثر.

25- ابن الصلاح، أبو عمرو، مقدمة ابن الصلاح، ملف pdf، ص36، على الرابط الآتي:

www.4shared.com/office/hL5.../___online.html-

26- المصدر نفسه ص 39.

ومن شأنه أن لا يقول في ذلك: (أخبرنا فلان)، ولا: (حدّثنا)، وما أشبههما. وإنما يقول: قال فلان، أو: عن فلان، ونحو ذلك»[27].

وذِكر هذه القاعدة، هنا، كان من أجل النظر في إمكانيّة تطبيقها، على المستوى الواقعي والفعلي، على نصوص روائية، فقد ظلّ التّنظير بهذه القاعدة -كما قلنا سابقاً- لا يجرؤ، في الكثير من الأحيان، على تطبيقها على مسمّى الصحابة، للأسباب المذكورة في محلِّها من هذا المقال. وسنأخذ مثالاً على ذلك، لنرى كيف كانت القواعد تقفز على حدود العلم، وتؤسِّس لمنطق الرواية ليأخذ مكانة الريادة والسّبق في الثّقافة الإسلامية.

وسنتحدّث، الآن، عن تدليس الصحابة، من خلال نموذج أبي هريرة، وقد روتْه الكتب المعتمدة في الرّواية كصحيح مسلم: «فعن أبي بكر عبد الرحمن قال: سمعت أبا هريرة يقصّ. يقول في قصصه: من أدركه الفجر جُنُباً فلا يصم. فذكرت ذلك لعبد الرحمن بن الحارث، فأنكر ذلك. فانطلق عبد الرحمن، وانطلقت معه، حتى إذا دخلنا على عائشة وأمّ سلَمة، فسألها عبد الرحمن عن ذلك. قال: فكلتاهما قالت: كان النبيّ يصبح جُنُباً من غير حلْم، ثمّ يصوم. قال: فانطلقنا حتّى دخلنا على مروان، فذكر ذلك له عبد الرّحمن، فقال مروان: عزمت عليك إلا ما ذهبت إلى أبي هريرة، فرددت عليه ما يقول. قال: فجئنا أبا هريرة، وأبو بكر حاضر ذلك كلّه. قال: فذكر له عبد الرحمن، فقال أبو هريرة: أهما قالتا ذلك؟ قال: نعم. قال: هما أعلم. ثم ردّ أبو هريرة ما كان يقول في ذلك إلى الفضل بن عباس. فقال أبو هريرة: سمعت ذلك من الفضل، ولم أسمعه من النبي. قال: فرجع أبو هريرة عمّا كان يقول في ذلك. ثم قال الرّاوي أبو بكر: قلت لعبد الملك: قالتا في رمضان؟ قال: كذلك. كان يصبح جُنُباً من غير حلْم ثمّ يصوم»[28].

إنّ الرِّواية تكشفُ عن تدليسٍ خطيرٍ قام به صحابي بنسبة الحديث إلى غير قائله الحقيقي[29]، مع عدم إمكانية التأكُّد من صحّة القول أساساً، على اعتبار أنّ الشّخص الثّاني؛ الذي هو الفضلُ بن عبّاس، شخص متوفّى. فلو كانت القواعد تمشي على كلّ واحد، ولا أحد يكابر، أو يتجاوز تلك القواعد، تحت أيِّ مسمّى، لانسحب الأمر على هذا الصحابي؛ الذي أسّس، من خلال مروياته، لمجموعة من السّلط، ولعلّ أهمّها التّأسيس للنّظام الحاكم والسّلطة السّياسية القائمة آنذاك، من خلال مرويات وأحاديث تنحو هذا المنحى. ثمّ تقعيدُه لمسألة القضاء والقدَر بمفهومها الثقافي الخطير، ناهيك عن حِرصه الأكيد، من خلال مروياته، على ربط أواصر الودِّ والقرابة، بنقل المفاهيم اليهودية والمسيحية إلى الإسلام، تارةً بالرّواية المباشرة عن

27- المصدر نفسه، ص 50.

28- مسلم، محمد النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب: الصيام، باب: صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، ح 1109، على الرابط التالي:
http://www.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=3152&#38>;idto= 3159&bk_no=53&ID=482.

29- انظر مبحث تدليس أبي هريرة في: بوهندي مصطفى، أكثر أبو هريرة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2002م، ص 49.

الرسول، وتارةً بالتّوظيف الخطير لنصوص القرآن الكريم؛ التي ستصير، في مفهوم هذا الصّحابي، شواهد على العقائد اليهودية المسيحية، دون ميزانٍ أو معالجة موضوعية للأمور.

وإليك مثال على صحّة ما نقول: ففي الصحيحين عن أبي هريرة أنّ رسول الله قال: «ما من مولود يولد إلا نخسَه الشّيطان، فيستهلُّ صارخاً من نخسة الشيطان، إلا ابن مريم وأمّه»، ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إنْ شِئتمْ: {وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ} [آل عِمرَان: 36].

لن أخوض في الارتباك الخطير في مجموع الرّوايات؛ التي أسّستْ لهذا المفهوم، فهي، تارةً، تجمع بين عيسى وأمّه، وتارةً تنفرد بأحدهما، ما يدلّ على التخبّط والارتباك في رواية هذا الحدث، ولكنّ هذه الرواية تحمل مضامين على الأقلّ بعيدة عن المفهوم القرآني تجاه عيسى وأمّه، فهي قريبة من البعد المسيحي في التعاطي مع هذا الأمر؛ الذي يعدّ مريم ذات طبيعة إلهية بولادتها المعجزة، وما عذريتها الدائمة، في العرف المسيحي، عند بعض الطوائف، إلا دليلاً على الطبيعة الخارقة لهاتين الشخصيتين. وهي عقائد تأثرت بالفكر الغنوصي، أو الدّوسيتي؛ الذي كان يَعُدُّ جسد المسيح جسداً خيالياً، كالذي للشّبح، وليس جسداً حقيقياً، وهذا ما لم يؤثّر في عذرية مريم، وعدم افتضاض بكارتها، حسب النصوص الأبوكريفية.

أمّا القرآن، فقد كان موظَّفاً لتمرير الرواية؛ إذ الآية تقول: {إِذْ قالَتِ امْرَأَةُ عِمْرانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ ما فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمّا وَضَعَتْها قالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُها أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِما وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُها مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَها مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ} [آل عِمرَان: 35-36][30] فالرواية تريد أنْ تمرِّر أنّ حفظهُما من نخْس الشّيطان كان بسبب الدعاء، غير أنّ الدعاء في الآية كان بعد الوضع، وليس قبله، إضافة إلى أنّ استهلال المولود بالصُّراخ، لا علاقة له بالدّعاء، أو غيره، وإنّما هو دخول الهواء إلى رئتيه خارج عالم الحمل؛ الذي مكث فيه تسعة أشهر.

إذاً، البنية التّأسيسية للعلوم الإسلامية، في الكثير من الأحيان، كانت تؤسَّس على قواعد ثقافة العصر بكلّ تجاذباتها وتقاطعاتها، ولم تؤسّس، يوماً، على قاعدة القرآن، وهذا الأمر كان سيكون مستساغاً من الناحية المنهجية، لو لم تزعم هذه العلوم أنّ أصولها بُنيت على القرآن، لكنّ الأمر كان ينحو باتجاه آخر. كان القرآن مجرّد موظَّف في اللّعبة الإيديولوجية؛ من أجل اكتساب الشّرعية والقداسة لهذه العلوم. ويبقى السّؤال مطروحاً في وضع منهجية جديدة مبنية أساساً على السّقف المعرفي؛ الذي وصلت إليه الإنسانية بمعارفها ومداركها. على أنّ ظروف العصر تقتضي مناهج وعلوماً أخرى في مدارسة الخبَر، والرّواية بعيداً عن لعبة المصطلح؛ الذي ظلّ رهين التّنظير والكلام المزيّن بصفة العلمية، وهو منها براء، كما رأينا. وهدفنا من هذه

30- مسلم، محمد النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل عيسى عليه السلام، ح 2366، على الرابط التالي:
http://www.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?flag=1&bk_no=1&ID= 4435

الدراسة أنْ نلقي بحجرٍ في ماء راكد، لتتحرّك العقول في إطار ما هو نسبيّ، فتبحث لها عن أطر جديدة، وقواعد تخدُم، في أبعادها، الجوانبَ الإنسانية في عالم معاصر لا يعترف إلا بالجودة، ولا شيء غير الجودة: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاءً وَأَمّا ما يَنْفَعُ النّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ} [الرّعد: 17].

4- كذبات إبراهيم وأزمة الرواية الحديثية[31]:

لا بدّ لنا من الإشارة، في هذا المقام، إلى أنَّ الرواية الحديثية كانت، ولا تزال، تؤطّر عقل المسلم من قريب أو من بعيد، وكانت، في مختلف مراحل تشكُّلِها، مبشِّرة بما تحمله من مفاهيم عبْر أدواتها التّصحيحية والتمحيصية. فقد كان الأنبياء، ضمن الإطار المبشّر به، يحملون المفاهيم المختلفة للحياة، ويندرجون تحت السقوف المعرفية الإنسانية؛ التي تعدّ الرّواية نفسها أحد الأعمدة الأساسية لها. ونموذج إبراهيم لم يكن بدعاً من النّماذج؛ التي ستكشف عن عمق الأزمة الفكرية لثقافة الرواية بكلّ تجلياتها، ولكنّ اختيارنا له كان نابعاً من عمق المكانة التي يحتلّها في الوسط الديني التوحيدي، ولخطورة المفاهيم الكامنة في بنية الرّواية حسب التصور التقليدي لها تجاهه. وقبل السير في تثبيت هذه الخطوات ندَع الرّواية الحديثية الصحيحة -حسب المنهج الحديثي- تتكلّم عن نفسها، لنرفقها بالتحليل لاحقاً:

في صحيح مسلم: «عن أبي هريرة[32]، **أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قطّ إلا ثلاث كذبات، ثنتين في ذات الله قوله {إِنِّي سَقِيمٌ}**، وقوله {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذا}، وواحدة في شأن سارة، فإنّه قدِم أرض جبار ومعه سارة، وكانت أحسن النّاس، فقال لها: إنّ هذا الجبار إنْ يعلم أنّك امرأتي يغلبني عليك، فإنْ سألك فأخبريه أنّك أختي، فإنّك أختي في الإسلام، فإنّي لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك، فلمّا دخل أرضه، رآها بعض أهل الجبّار، أتاه، فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أنْ تكون إلّا لك، فأرسل إليها، فأتي بها، فقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلمّا دخلت عليه لم يتمالك أنْ بسط يده إليها، فقُبِضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أنْ يطلق يدي ولا أضرّك، ففعلت، فعاد، فقبضت أشدّ من القبضة الأولى، فقال لها مثل ذلك، ففعلت، فعاد، فقبضت أشد من القبضتين الأوليين، فقال: ادعي الله أن يطلق يدي، فلك الله أنْ لا أضرك، ففعلت، وأطلقت يده، ودعا الذي جاء بها، فقال له: إنّك إنما أتيتني بشيطان، ولم تأتني بإنسان، فأخرِجها من أرضي، وأعطها هاجر، قال: فأقبلت تمشي، فلمّا رآها إبراهيم

31- تندرج هذه الرواية في إطار ما يسمّى الإسرائيليات، وتعني كلّ الروايات الدّخيلة على الإسلام وعقيدته، سواء في مجال التفسير أم مجال الحديث. انظر التعريف الذي أعطاه إياها الذهبي في:

الذهبي، محمد حسن، الإسرائيليات في التفسير والحديث، مكتبة وهبة، ط4، 1990م، ص 14/13.

32- أسهم أبو هريرة، بشكل كبير، في انتشار هذا النوع من الرواية عن بني إسرائيل، عبر شخصيّة مهمة ومحورية هي كعب الأحبار. انظر عن حياة كعب الأحبار:

إسرائيل، أبو ذؤيب، كعب الأحبار، راجعَ الكتاب وأعدّه للطبع: محمود عباسي، مطبعة الشرق التعاونية، شعفاط، القدس، 2008م، ص 21-22.

وانظر، أيضاً، عن أبي هريرة: الحسيني، عبد الحسين شرف الدين، أبو هريرة، منشورات الطبعة الحيدرية في النجف، ط2، 1956م.

عليه السلام، انصرف، فقال لها: مَهيَم؟ قالت: خيراً كف الله يد الفاجر، وأخدم خادماً. قال أبو هريرة: فتلك أمّكم يا بني ماء السّماء»[33].

وقبل أن نتناول الرّواية بالتّحليل، ألفِتُ النّظر من جديد إلى أنّ القرآن لم يكن، يوماً، أصلاً معتمداً في البناء الروائي[34]، ولكنّه كان موظّفاً، بشكل من الأشكال، كما سنرى، لخدمة أغراض معيّنة، سينكشف التحليل عنها بمجرّد الدّخول في بنية الرواية السابقة، والرواية، التي بين أيدينا، أحد أهمّ الأدلّة على خطورة منهج التّجزيء والتّقسيم للنّصوص، مهْما كان انتسابها وقراءتها في سياقات مباينة لا تمتُّ إليها بصلة، فباستخدام آليّة التناقض الحاصل بين النظرية والتطبيق في هذه البنية، نعالج مكوّنات هذه الرواية من خلال النقاط الآتية:

أ- صادق أم كاذب؟!!!:

استرعى نموذج إبراهيم عليه السلام، بوصفه نبيّاً، وصاحب رسالة، اهتمامَ كلّ الأديان والعقائد، فقد شكّل وحده أمّة، ونموذجاً معرفياً يمكننا التّأسيس عليه، بوصفه باحثاً عن الحقيقة، وحنيفاً يحنف ويميل مع الدليل الموضوعي في أيّ اتجاه، مهْما كانت التضحيات، فهو الإنسان والفتى، الذّي يكسر الثّقافة الاجتماعية، وهو المهاجر في أرض الله، حين يضيق به الحال والمآل. وهو الواضع أسس البحث العلمي، فلا شيء يمكن تصديقه إلا إذا اطمأنّ القلب إليه؛ لأنّ المنطق الطبيعي يستوجب ألّا يكون الإصلاح ضرباً من التنظير الفكري، أو المثالية العبثية، ولكنّ الإصلاح يقتضي الإيمان بالأفكار المبشّر بها في الواقع الفعلي لأيّ مصلح كان. فأبوّة إبراهيم لكلّ الناس لم تأتِ من فراغ روحيّ أو فكري، ولم تكن أبوّة بيولوجية، ولكن كانت تلقيناً لمنهج. لقد تأسّست شخصية إبراهيم -عليه السلام- من خلال تراكمات كثيرة، حسب الطرح القرآني، ولعلّ أهم معطىً قد انبثقت منه هذه الأبوّة الإنسانية، هو منهج الصّدق في الأقوال والأفعال، ومع النفس، ومع الآخر. ولهذا خلّد ذكره في الكتاب مؤسساً للمنهج المقتنع بما يفعل، ولو كان مبايناً للناس: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً} [مَريَم: 41] والصّدق طريق السلم والسلام: {مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ} [الحَجّ: 78].

لكنّ رواية أبي هريرة تريد أنْ تنشئ لها خطّاً موازياً لهذا الخطّ القرآني، وتجعل ممّن كان الصّدق منهجاً في حياته كاذباً، ليس طول حياته، وإنما ثلاث كذبات فقط: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَام إِلَّا ثَلَاثَ

33- مسلم، محمد النيسابوري، صحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب: من فضائل إبراهيم الخليل، ح 2371، على الرابط الآتي:
http://www.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?flag=1&bk_no=53&ID= 7083

34- انظر بهذا الشأن: الحاج حمد، أبو القاسم، جدل الغيب والطبيعة والإنسان العالمية الإسلامية الثانية، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2004م، ص73.

كَذَبَاتٍ»، وتبيّن هذه الكذبات عن طريق التلفيق والتجزيء، مستشهدةً بالنص القرآني من أجل الشرعية المزعومة. لنقرأ معاً ما سمّته الروايات كذبات.

لقد أكَّدتُ، سابقاً، أنّ الصّدق منهج لا يعرف النّفاق النّفسي، فأياً كانت نتيجة البحث الإنساني يكون الاقتناع، والاطمئنان النفسي. وإبراهيم لم يكنْ بمعزل عن هذا السياق البحثي الكبير في أسرار الكون، وطبيعة الحياة، ولو تساءل عن كيفية إحياء الموتى، أو بحث عن الرّب بين الكواكب والنجوم: {فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ} [الصَّافات: 88-89] إنّه السّقم الذي يصيب أيّ باحث عن الاطمئنان النفسي والقلبي، إنّه السقم الموازي لِكُنْهِ الصّدق في المنهج. وليس هناك أيّ مبرّر لما تقول الرواية بأنّه كذبة من خلال السياقات القرآنية المتنوعة، إلا أنْ نقول: إنّه التجزيء المخلّ، والمحاولة المكشوفة للتمرير الإيديولوجي الذّي سنراه في الكذبة الثالثة، بزعمهم.

أمّا عن الكذبة الثانية -حسب روايتهم- فهي قول القرآن: {قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ} [الأنبيَاء: 63] ولكنّ رواة الرّواية لم يكن لهم همّ إلا التّوظيف المغرض، ولو كان على حساب القراءة المنفصلة عن سياقها، فعبادة الآلهة والمعبودات الحجرية أمرٌ لا يستسيغه فتىً في حجم إبراهيم قد تمرّد على سلطة المجتمع والأهل، ولم يرَ بُدّاً، عن طريق البحث والتقصّي، من أنْ يضع الكلّ على المحكّ الحقيقي، فيلجأ إلى أن يجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم. ولمّا يُسأل عن ذلك، يقيم الحجة بأنّ الفعل هو فعل هذا الكبير: {بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ} [الأنبيَاء: 63] وعندها، سيبهت الذي كفر، ولم يتبين له حقيقة المنزلق الخطير، حينما يسلّم نفسه للأحجار لتتكلّم باسمه، أو تصنع له خططه وحياته، فليس هناك أيّ كذبة، ولاهم يحزنون، فالكذب لا يصنع إنساناً، بله أنْ يصنع منهجاً للصّدق والبحث بين ركام الثقافة الاجتماعية بكلّ تجلياتها، ولو كان كاذباً لما تعرّض للاضطهاد، والهجر النفسي، ولداهن الأهل والأحباب، وعاش في عزة نفس ورخاء، لكنّ الصدق طريق المتاعب، حين يأبى الإنسان أنْ لا يسقط إلا فيما تؤديه إليه قناعاته، وخياراته البحثية. والقرآن، سواء اتّفق معه الإنسان أم اختلفت رؤيته حوله، يحمل لنا معالم شخصية إنسانية يمكن الترويج لها بشكلٍ مقبول من الناحية الإنسانية، لا كما يريد لنا مشروع الرواية الحديثية المجزئة للقرآن. وعلى الراغب في التعرّف إلى شخصية إبراهيم الباحث عن الحقيقة الإنسانية، على حداثة سنه: {قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ} [الأنبيَاء: 60]، الاطلاع على مخطوطات قمران المسايرة للنَّفَس القرآني في إبراز معالم هذه الشخصية.

ب- جاهر بالحق أم ديوث؟!!!:

أمّا الكذبة الثالثة، فهي مدار هذه الرواية والنقطة المركزية، التي وُظِّفَ لها القرآن: «وَقَالَ: بَيْنَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ وَسَارَةُ، ، إِذْ أَتَى عَلَى جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ هَا هُنَا رَجُلًا مَعَهُ امْرَأَةٌ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ، فَأَرْسَلَ

إِلَيْهِ، فَسَأَلَهُ عَنْهَا، فَقَالَ: مَنْ هَذِهِ؟ قَالَ: أُخْتِي، فَأَتَى سَارَةَ، قَالَ: يَا سَارَةُ لَيْسَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مُؤْمِنٌ غَيْرِي وَغَيْرَكِ، وَإِنَّ هَذَا سَأَلَنِي، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّكِ أُخْتِي، فَلَا تُكَذِّبِينِي».

يبدو أنّ الرواية تتناسى أنّ إبراهيم كان صادقاً مع نفسه، ولم يخشَ ذلك الذي آتاه الله الملك في حواره معه، وجهر بالحق أمامه، ولم تهمّه إلا قناعاته حتى بهت الذي كفر: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حاجَّ إِبْراهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قالَ أَنا أُحْيِي وَأُمِيتُ قالَ إِبْراهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِها مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ} [البَقَرَة: 258]. إنّه إبراهيم الذي يهجر أباه، وملة قوم لا يؤمنون، بما يقيمه الدليل والحجة: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِبْراهِيمَ إِنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً * إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً} [مَريَم: 41-42]، فهل هذا النّموذج الإنساني المتكرّر في التاريخ في صموده، وصلابة موقفه، مهما كانت التحدّيات، يقبل بأنْ يعطي زوجته لتنام في فراش غيره متذرّعاً بأنّها أخته في الإسلام، أو غيره، كما تريد أنْ تمرّر لنا الرواية؟!

لا بدّ أنّ ثمّة سرّاً ستكشف عنه الرواية، وهو تمرير الفكرة اليهودية المتمثلة في تسليم هاجر الجارية إلى سارة، وإثبات شرف النسل والعنصرية اليهودية، التي لا تقبل بأبناء العبيد، والرواية نفسها هي النّص الموجود في الكتاب المقدس بصيغة إسلامية: «وحدث جوع في الأرض، فانحدر أبرام إلى مصر ليتغرب هناك؛ لأنّ الجوع في الأرض كان شديداً، وحدث، لما قرب أن يدخل مصر، أنه قال لساراي امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون، إذا رآك المصريون، أنهم يقولون: هذه امرأته، فيقتلونني، ويستبقونك، قولي: إنك أختي، ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفسي من أجلك، فحدث، لما دخل أبرام إلى مصر، أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جداً، ورآها رؤساء فرعون، ومدحوها لدى فرعون، فأخذت المرأة إلى بيت فرعون، فصنع إلى أبرام خيراً بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال، فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام. فدعا فرعون أبرام، وقال: ما هذا الذي صنعت بي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا قلت هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي؟ والآن هوذا امرأتك خذها، واذهب، فأوصى عليه فرعون رجالاً فشيعوه وامرأته، وكل ما كان له...»[35].

أهذا هو النّموذج المبشّر به في الرواية؟ عمل لا يقوم به أبسط النّاس، فكيف بمن كان أمّة وحده؟ هل الرواية الحديثية تواصل الطرح العنصري اليهودي في التفريق بين الأسياد والعبيد؟. حقّاً، لقد كانت هذه الرواية مختلّة كامل الاختلال مع نفسها، ناهيك مع الطرح القرآني. وقد نلتمس العذر لليهود لقيام دينهم على فكرة العنصر، وهذا ما جسّدته القصة، التي اقتبسها الرواة من الكتاب المقدّس، حين قال: «ورأت سارة ابن هاجر المصرية، الذي ولدته لإبراهيم، يمزح. فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها، لأنّ ابن هذه الجارية

35- سفر التكوين، الإصحاح 12، الأعداد 20/11.

لا يرث مع ابني إسحاق. فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه. فقال الله لإبراهيم: لا يقبح في عينيك من أجل الغلام، ومن أجل جاريتك. في كلّ ما تقول لك سارة اسمع لقولها. لأنه بإسحاق يدعى لك نسل. وابن الجارية، أيضاً، سأجعله أمة لأنه نسلك»[36]. فما بال رواة الحديث يتسابقون وراء عنصرية بغيضة لا يقرّها القرآن، ولا شرائع الدنيا؟. ولكن بالاطلاع على سيرتهم سينكشف المستور، وإذا ظهر السّبب بطل العجب؟

ج- ثلاث كذبات أم أربع؟!!

يبدو أنّ مسلسل التناقضات لا يريد أنْ ينتهي: «فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ ذَهَبَ يَتَنَاوَلُهَا بِيَدِهِ، فَأُخِذَ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ، فَدَعَتِ اللَّهَ، فَأُطْلِقَ، ثُمَّ تَنَاوَلَهَا الثَّانِيَةَ، فَأُخِذَ مِثْلَهَا، أَوْ أَشَدَّ، فَقَالَ: ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ...». إنّ الملك في الرواية إمّا أحمق، وإما جاهل يكرّر دائماً: «ادْعِي اللَّهَ لِي وَلَا أَضُرُّكِ»، وهو، في كلّ مرة، يشدّ أكثر، ويعترف بقدرتها. فبماذا سيضرّها يا ترى، وهي تملك مفاتيح شدّه؟. إنّها، ببساطة، سذاجة الرواية، حين لا تكون الحبكة القصصية صادقة مع نفسها، وعندما تكون موجّهة بشكل مغرض لخدمة هدف كشفت عنه الرواية في الأخير: «فَأَخْدَمَهَا هَاجَرَ، فَأَتَتْهُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ مَهْيَا، قَالَتْ: رَدَّ اللَّهُ كَيْدَ الْكَافِرِ أَوِ الْفَاجِرِ فِي نَحْرِهِ، وَأَخْدَمَ هَاجَرَ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ».

أمّا عن الكذبات الثّلاث، فلا ندري أهي ثلاث أم أربع؟ فإذا كان ما قاله في شأن سارة إلى الفرعون صدقاً، وهو ما درج عليه المفسّرون، وشرّاح الحديث، أيضاً، من كونها أخته، فلم يبق من الرّواية إلّا كذبتان، وإذا لم يكن ما قاله صدقاً، بل كذباً، فقد أصبح عدد الكذبات أربعاً، وليس ثلاثاً. كذبه على سارة، إضافة إلى الفرعون، فتأمل!!![37].

وختاماً، أقول: نحتاج، أكثر من أيّ وقت مضى، إلى نماذج نرى فيها أنفسنا، سواء كان الذّين أحد أطرافها أم الفكر الإنساني عموماً. ولا يمكن بحال أنْ نتحدَّث عن مشروع إنسانيّ منفتح على الآخر، وهادٍ إلى سبل التواصل المعرفي والحضاري، في ظلّ روايات مأزومة تصنع من نماذجها أطيافاً لا حقيقة لهم في عالمٍ لا يؤمن إلا بالجودة، وفي عولمة تكتسح المستضعفين في الأرض بمشارقها ومغاربها. إنّنا نحتاج إلى إبراهيم في دعوته للسّلام والهجر الجميل للعقل الجمعي المتأثر بثقافة الماضي، والمشبع بالحمولات الثقافية المختلفة. نحتاج إلى إبراهيم المؤسِّس للنظر في الكون، والنفس، والسائر على خطى التّجربة العلمية، غير آبهٍ بما قد تؤدّي إليه النتائج.

36- سفر التكوين، الإصحاح 21، الأعداد 13/9.

37- بوهندي، مصطفى، العقائد الإسرائيلية والتفسير الإسلامي، بحث مرقون في جامعة محمد الخامس، الرباط، إشراف مولاي إسماعيل العلوي.

نحتاج إلى إبراهيم الصّادع بالحقّ، والجاهر بحججه أمام كلّ متسلِّط في الأرض، وكلّ قامع للحريات الفكرية والثقافية، تحت أيّ مسمّى من المسمّيات. نحتاج إلى إبراهيم العادل عن كلّ قراراته، حينما يدرك حجم الهوة التي قد تسقطه فيها عصبيته، أو تصلب موقفه: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ} [هُود: 75] هذا ما نحتاج إليه فعلاً. أمّا ما تبشِّرنا به الرواية، فشخص يأباه المنطق السليم، وهو نموذج عند من كان الكذب والدجل على الناس منهجهم، ومن كانت الدياثة، تحت اسم الأخوة في الدين، سبيلاً ممكناً لهم.

المصادر والمراجع

1- ابن الصلاح أبو عمرو، مقدمة ابن الصلاح، ملف pdf، على الرابط الآتي: www.4shared.com/office/hL5.../_____online.html

2- ابن منظور، أبو الفضل، جمال الدين، لسان العرب، على الرابط الآتي: http://www.baheth.info/all.jsp?term

3- أبو رية، محمد:

- أضواء على السنة المحمدية، أو دفاعاً عن الحديث، دار المعارف، ط6.

- شيخ المضيرة أبو هريرة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط4، 1993م.

4- إسرائيل، أبو ذؤيب، كعب الأحبار، راجع الكتاب وأعدّه للطبع: محمود عباسي، مطبعة الشرق التعاونية، شعفاط، القدس، 2008م.

5- إسلامبولي، سامر، تحرير العقل من النقل، دار الأوائل، دمشق، ط1، 2000م.

6- البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، على الرابط الآتي:

http://www.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom= 3664&idto=3667&bk_no=0&ID=2174

7- البنا، جمال، تجديد الإسلام وإعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية، كتب عربية، دون تاريخ نشر، ملف pdf.

8- البوطي، محمد سعيد رمضان، الإنسان مخير أم مسير، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط2، 1998م.

9- بوهندي، مصطفى:

- أكثر أبو هريرة، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 2002م.

- التأثير المسيحي في تفسير القرآن، دار الطليعة، بيروت، ط1، 2004م.

- العقائد الإسرائيلية والتفسير الإسلامي، بحث مرقون في جامعة محمد الخامس، الرباط، إشراف مولاي إسماعيل العلوي.

10- الحاج حمد، أبو القاسم، جدل الغيب والطبيعة والإنسان العالمية الإسلامية الثانية، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 2004م.

11- الحسيني، عبد الحسين شرف الدين، أبو هريرة، منشورات المطبعة الحيدرية في النجف، ط2، 1956م.

12- الذهبي، محمد حسن، الإسرائيليات في التفسير والحديث، مكتبة وهبة، ط4، 1990م.

13- سمير إبراهيم خليل حسن، الحرية مسؤولية، على الرابط الآتي:

http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=175943

14- السيوطي، جلال الدين، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، ط1، 1405هـ/1983م.

15- الشافعي، محمد بن إدريس، الرسالة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

16- شحرور، محمد:

- السنة الرسولية والسنة النبوية، دار الساقي، لبنان، ط1، 2012م.

- نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2000م.

17- الشوكاني، محمد بن علي، الرسائل السلفية، دار الكتاب العربي، ط1، 1411هـ/1991م.

18- الصحابة في القرآن والسنة والتاريخ، سلسلة المعارف الإسلامية 14، مركز الرسالة، على الرابط الآتي:

http://www.4shared.com/postDownload/yMJSWy8_ce/_____.html

19- الصدر، محمد باقر، مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن، دار التوجيه الإسلامي، الكويت، نشر إلكترونياً، وأخرج فنياً برعاية شبكة الإمام الحسين للتراث والفكر الإسلامي، ملف pdf.

20- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، دار الكتب العلمية، ط1، 1412هـ/1992م.

21- عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر، ط4، 1418هـ/1997م.

22- العسقلاني، ابن حجر، نزهة النظر، تحقيق محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1409هـ/1989م.

23- الكردي، إسماعيل، نحو تفعيل قواعد نقد متن الحديث: دراسة تطبيقية على أحاديث الصحيحين، دار الأوائل، دمشق، ط1، 2002م.

24- الكفيشي، عامر، حركة التاريخ في القرآن الكريم، دار الهادي، بيروت، ط1، 2003م.

25- مسلم، محمد النيسابوري، صحيح مسلم، على الرابط الآتي:

http://www.islamweb.net/newlibrary/display_book.php?idfrom=3152&#38>;idto=3159&bk_no=53&ID=482

26- منصور، أحمد صبحي:

- أكذوبة عذاب القبر والشجاع الأقرع، ملف pdf.

- القرآن وكفى، ملف pdf، على الرابط الآتي:

https://www.goodreads.com/ebooks/download/9374095

27- مهدوي، مصطفى كمال، البيان بالقرآن، على الرابط الآتي:

http://www.libya-watanona.com/adab/mmehdawi/mm10046a.htm

28- أبو زيد، نصر حامد، الإمام الشافعي وتأسيس الإيديولوجية الوسطية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط1، 2007م.

29- هاني، إدريس، 1995م، الخلافة المغتصبة: أزمة تاريخ أم أزمة مؤرخ؟، دار النخيل للطباعة والنشر، ط2.

30- الورداني، صالح، أهل السنة شعب الله المختار، مكتبة مدبولي الصغير، ط1، 1996م.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2017

جميع الحقوق محفوظة © 2017